أدواتُ القسمِ في القرآنِ الكريم
وعلاقةُ المُقسَم به والمُقسَم عليه
دراسةٌ دلاليةٌ

م.م. حيدر حمود عبد الأمير الأسدي
كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة كربلاء

Swearing tools in the Holy Qur'an
And the relationship of the divider and the divisor
Semantic study

Asst.Lect. Haider Hamoud Abdul Amir Al-Asadi
College of Education for Human Sciences / University of Karbala
Email: Hayder.hammod@s.uokerbala.edu.iq

ملخص البحث

يُعدّ القَسم من المؤكدات في اللغة العربية ، الذي يُمكّن الشيء في نفس الانسان ويقويه، فالقسم كان شائعا لدى العرب قديما ، فمن عادات العرب إذا ارادت أن تؤكد أمرًا، وتؤكد خبرا أقسمت ، ثم نزل القرآن الكريم بلغة العرب ، وعلى أسلوب كلامهم ومنحى خطابهم، إذ اجمعت عقول الأمة على أنّه كتاب فيه من الاعجاز والبيان من وجوهٍ لا تنحصر، وهذا الإعجاز شهد به أرباب البيان من أهل اللسان ، وقد وقف الناس تجاهه مواقف متباينة ، فمنهم المُنكِر ومنهم الشاك ، فاقسم الله بكتابه ؛ لإزالة تلك الشكوك والهواجس واحباط الشبهات ، وإثبات الحجة ، وتوكيد الأخبار ، وقد تضمّن صورا عدة في القسم ، والغاية منه طمأنة نفس المخاطَب لا سيّما في الأمور العظيمة.

Abstract

The oath is considered one of confirmations in Arabic Language, which it enables and strengthens man in himself , so the oath was common among Arabs in the past , one of Arabs traditions, if they wanted to confirm an order or news, they swore, than Holy Qur'an come down in the Language of Arabs, and on the style of their speech, if the minds of the nation are united, that book contains miracles and statement is not limited, this miracles and this miracle was witnessed by the masters of the statement and the people of the tongue, and the people was stopped towards it different positions, some of them the denied an some of them the doubts, ALLAH swear by his book, to remove those doubts , concerns and frustrate the suspicions , and prove argument, and confirm the news, and it includes several images in the oath, its purpose is rest addressee oneself especially the great things.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين .

القسم في اللغة هو أحد طرق توكيد الكلام ، وإبراز معانيه ومقاصده على النحو الذي يريده المتكلم ، إذ يؤتى به لدفع انكار المنكرين، أو إزالة شك الشاكين ، بأنّ كل ما يأتي بعد القسم مجزوم به ، مما يبعث في نفوس المخاطبين الطمأنينة بصحة الكلام ، وجاء القرآن الكريم وقد تعددت فيه الأقسام ما بين ظاهر ومضمر ، واقتصرت في البحث على القسم الظاهر قدر تعلقه بمادة البحث ، والذي اقسم الله تعالى فيه بنفسه وبمخلوقاته على أمور كثيرة ، والقسم بالمخلوقات في القرآن الكريم هو تعظيم لخالقها ؛ لأنّ تعظيم المخلوق تعظيم لخالقها ، وتعظيم الصنعة هو تعظيم الصانع .

وتهدف الدراسة إلى بيان دلالة أدوات القسم ، واستعمالاتها في القرآن الكريم، والعلاقة بين المقسم به والمقسم عليه ، واتبعت في دراستي المنهج الوصفي عن طريق عرض بعض الآيات القرآنية الخاصة بالقسم ، وتضمنت الدراسة مبحثين : اختص الأول التعريف بالقسم لغة واصطلاحا ، وأدوات القسم ، أمّا الثاني ، اقتصر على بيان الصلة ، أو العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه ، وأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في البحث منها: التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ، ومفاهيم القرآن لجعفر السبحاني ، والإعجاز البياني لبنت الشاطئ.

المبحث الأول

القَسم لغة :

إنّ مصطلح القسم كان معروفا عند العرب قديما ، فكانوا يستعملونه كلما دعتهم الحاجة إليه ، وخصوصا في الأخبار والعهود وذلك في توكيد الأمور ، وقد ورد في القرآن الكريم بأكثر من صيغة منها : القَسَمُ ، الحلف ، اليمين ، الآلية ، العهد ، العقد... ، فاختلاف صيغه

تبعا لاختلاف الأغراض المقصودة منه ، وسنقف في هذا المبحث على الأصل الاشتقاقي لمادة قسم وحلف ويمين ؛ لأنّها المعنية هنا .

جاء في المقاييس مادة "قسم" ((القَسْمُ: مصدرُ قَسَمْتُ الشّيء قَسْمًا ، والنصيب قِسْمٌ بكسر القاف ، فأمّا اليمينُ فالقَسَمُ ، قال أهلُ اللغة : أصلُ ذلك من القَسَامة ، وهي الأَيمَانُ تُقسَمُ على أولياء المقتول إذا ادّعوا دَمَ مقتولِهم على ناسٍ اتّهموهم به))[1]، فالأصل الاشتقاقي لهذه المادة عند ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) لها عدة معانٍ : الأول القَسْمُ بفتح القاف وسكون السين يُراد به التجزئة والتفريق، والقِسْمُ بكسر القاف وسكون السين خرج إلى معنى الحظ والنصيب ، والقَسَمُ بفتح القاف وفتح السين يراد به الحلف واليمين .

وقال الراغب الاصفهاني (ت٥٠٢هـ) : أنّ القسم بمعنى اليمين ، أمّا أصله فهو من القسامة ، وهي أيمانٌ تقسم على أولياء القتيل إذا ادّعوا على رجل أنّه قتل صاحبهم ، ومعهم دليل دون البيّنة ، فالقسم عنده في الأصل تقسيم أيمان ، ثم صار يستعمل في الحلف والأيمان نفسه[2]، والقَسَم : السين محرّكة هو اليمين بالله تعالى، وتقاسما : تحالفا[3] وممّا جاء في التنزيل قال تعالى : ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (سورة النمل :٤٩) ، وقد وردت مادة "قسم" في القرآن الكريم في سبعة وعشرين موضعا .

أمّا صيغة "حَلَفَ" ، فجاءت في لسان العرب ((الحِلْفُ والحَلِفُ : القَسَمُ لغتان ، حَلَفَ أي أقْسَم يحلِفُ حَلْفًا وحِلْفًا ، وحَلِفًا ومَحْلوفًا .... والحِلْفُ بالكسر: العهد يكون بين القوم، وقد خالفه أي عاهده ، وتحالفوا أي تعاهدوا))[4] ، فخرجت المادة – حلف – إلى معنيين: بفتح الحاء بمعنى القسم وبكسر الحاء بمعنى العهد ، وورد في التنزيل مادة "حَلَف" بفتح الحاء بمعنى القسم قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ (سورة القلم : ١٠) .

(١) معجم مقاييس اللغة مادة "قسم " ، ٥/ ٨٦ ، وينظر: لسان العرب ، ١٢/ ٤٧٨ ، ٤٨١ .
(٢) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن ، ٦٧٠ ، .
(٣) ينظر : القاموس المحيط ، ١/ ١١٤٩ .
(٤) لسان العرب ، ٩/ ٥٣ .

وأمّا مادة "ي ،م ،ن" بزيادة ياء قبل الحرف الأخير فهي اليمين ((واليمين القسمُ والجمعُ "أيمُنٌ" و"أيمان" وقيل إنّما سميت بذلك لأنّهم كانوا إذا تحالفوا ضرب كل امرئ منهم يمينَ صاحبِه ، وإن جعلت اليمين ظرفا فلم تجمعه ؛ لأنّ الظروف لا تكاد تُجمع واليمين يَمينُ الإنسان وغيره))[1] ، وجاء في التنزيل : ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ ﴾ (سورة المائدة : ٨٩) ، والأيمان في الآية الكريمة خرج إلى معنى الحلف بالله، وممّا تقدم نجد أنّ كتب المعاجم ذهبت إلى أنّ مصطلح القسم والحلف مترادفان يؤديان معنى واحدا من غير فرق ، في حين نجد أنّ العرب قالوا ((وحلف حلفة فاجر، وأحلوفة كاذبة))[2] ، وممّا جاء في التراث الشعري قول الشاعر[3]:

حلفتُ لها بالله حلفة فاجرٍ لناموا فـما إنْ مـن حـديـث ولا وصـالِ

وسنقف قليلا على التباين بينهما ، فالحلف يحتمل الشك والتردد ، ويكون معرضا في أكثر مواضعه للحنث ، أمّا مع القسم لم يرد مثل هذا ، قال تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤ ﴾ (سورة المجادلة:١٤)، وصف الله تعالى حال المنافقين الذين تولوا قوما أجانب عنهم وهم اليهود ، فهم يوالون الكفار اليهود في الباطن وهم في الأمر نفسه لا معهم ولا مع المؤمنين ، ويحلفون على الكذب وهم عالمون بأنّهم يكذبون فيما حلفوا[4].

فغالبا ما يدور الحلف في العربية على احتمال الحنث به ؛ لأنّه مبني على الشك والظن، ومصداق ذلك ما ورد في البيان القرآني إنّ الحلف معقودة على الحنث ، حيث يحلف المنافقون على خلاف الحقيقة ، دون الصدق في اليمين ، فمادة "حلف" وردت في القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعا ، كلها بغير استثناء في مقام الحنث باليمين[5] .

(١) مختار الصحاح ، ١/ ٣٥٠ ، وينظر : لسان العرب ، ١٣ / ٤٦٢ .
(٢) أساس البلاغة ، ١/ ٢٠٨ .
(٣) البيت من الطويل ، ديوان امرئ القيس ، ١/ ١٣٧ .
(٤) ينظر : التفسير الكبير ، ٢٩/ ٤٩٧ ، والتحرير والتنوير ، ٢٨/ ٤٧ .
(٥) ينظر : سورة التوبة ، الآيات :٤٢ ، ٥٦ ، ٦٢ ، ٧٤ ، ٩٦ ، ١٠٧ ، وسورة المجادلة ، الآيات : ١٤، ١٨ ، وسورةالقلم ، الآية :١٠ .

أمّا القسم فيكون على الأيمان الصادقة والحق البيّن ، ولهذا جاء في التنزيل موصوفا بالعظمة في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ (سورة الواقعة : ٧٦) ، فالعرب قد تستعمل ، أو تفسر لفظ "أقسم" بلفظ "أحلف" ، فليس هناك مسوّغا يمنع من تفسير أحدهما بالآخر ، ولا يكون ذلك في الاستعمال القرآني[١] ، ففي القرآن ما يلفت إلى أنّ هناك فرقا دقيقا بين اللفظين المقول بترادفهما، فرقا يؤيده فقه اللغة العربية[٢] .

القسم اصطلاحا :

ورد مصطلح القسم في كتاب سيبويه (ت١٨٠ هـ) ((اعلم أنّ القسم توكيد لكلامك))[٣] ، وجاء في اللمع ((اعلم أنّ القسم ضرب من الخبر يذكر ليؤكد به خبر آخر))[٤] ، والقسم هو ((الحلف ويسميه الخليل الإضافة ، وهو في الاستعمال ضرب من ضروب الخبر والتأكيد ، وأسلوب من أساليب تثبيت الكلام وتقريره ، يذكر ليتوكد به خبر آخر))[٥] ، فهو أحد طرق توكيد الكلام وإبراز معانيه ومقاصده على النحو الذي يقصده المتكلم ، والذي يمكّن الشيء في نفس السامع ويقوّيه ، وليطمئن إلى الخبر ، وفائدته هو توكيد الكلام ودفع إنكار المنكرين ، أو إزالة شكّ الشاكين ، وابعاد الجحد عنه ، وللقسم أربعة أركان : الأول : المُقْسِم وهو إمّا الله ، وإمّا العباد ، والثاني المُقْسَم به ، والثالث جواب القسم ، أو المقسم عليه والرابع أدوات القسم ، أمّا ابن خالويه (ت ٣٧٠ هـ) فقد عدّها سبعة إذ قال : ((واعلم أنّ القسم يحتاج إلى سبعة أشياء :أحرف القسم، والمُقسِم، والمُقسَم به ، والمُقسَم عليه ، والمُقسَم عنده ، وزمان ، ومكان))[٦] ، وسنتناول دلالة أدوات القسم وبيان العلاقة ، أو الصلة بين المقسم به والمقسم عليه.

(١) ينظر : التفسير البياني ، ١/ ١٦٦ .
(٢) ينظر : التفسير البياني ، ١/ ١٦٦ ، ١٦٨ ، والفروق اللغوية ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ .
(٣) الكتاب ، ٣/ ١٠٤ .
(٤) اللمع ، ١/ ١٨٣ .
(٥) معجم المصطلحات ، ١٨٧ .
(٦) اعراب ثلاثين سورة ، ١/ ٣٧ .

أدوات القسم :

من أدوات القسم عند النحاة : الباء ، والواو، والتاء، واللام ، ومن ، أكثرها الواو ثم الباء ، فهما يدخلان على كل محلوف ، قال سيبويه : ((وللقسم والمقسم به أدوات في حروف الجر ، وأكثرها الواو ، ثم الباء ، يدخلان على كل محلوف به ...))[١] ، وسنقتصر على أدوات القسم : الباء والواو والتاء ؛ لأنها الأكثر استعمالا في القرآن الكريم .

الباء: هي أصل أدوات القسم ، ومن معانيها تأتي حرف جر في أربعة عشر معنى، والقسم هو أحد معانيها ((الثاني عشر : القسم ، وهو أصل أحرفه ؛ ولذلك خصت بجواز ذكر الفعل معها نحو: أقسم بالله لتفعلن ، ودخولها على الضمير نحو: بك لأفعلنّ واستعمالها في القسم الاستعطافي نحو: بالله هل قام زيد))[٢] ، فالباء هي أصل حروف القسم ، ويؤيد ذلك أنّها تدخل على المضمر ، كما تدخل على المظهر كما ورد آنفا ، ولأنّها حرف الجر الذي يعدّى به الحلف ، فتقول : أقسم بالله ، وأحلف بالله وهلُمّ جَرّا .

جاء في الكتاب عن الخليل الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) : ((إنّما تجيء بهذه الحروف لأنّك تضيف حلفك إلى المحلوف به ، كما تضيف مررتُ به بالباء ، إلّا أنّ الفعل يجيء مضمرا في هذه الباب ، والحلف توكيد))[٣] ، ومعنى ذلك إذا قلت : مررتُ بزيدٍ ، فإنك بالباء قد أضفت المرور إلى زيد ، ومثله قولك في القسم : "بالله" فقد أضفت الحلف إلى الله تعالى[٤]، وتفيد الباء الإلصاق فهي تلصق فعل القسم بالمُقسَم به[٥] ، وفائدتها أيضا أنهّا تضيف ما قبلها إلى ما بعدها ؛ لأنّ فعل القسم في الكلام لا يصل بنفسه إلى المقسم به ، إلّا بالباء ، لأنّها الأصل في تعدية الأفعال إلى الأسماء ، وليس ذلك مع الواو والتاء[٦]، ومّما جاء في التنزيل في إثبات فعل القسم وفاعله معها ، كقوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ

(١) الكتاب ، ٣/ ٤٩٦ ، وينظر : الأصول في النحو ، ١/ ٤٣٠ .
(٢) مغنى اللبيب ، ١/ ١٣٧ ، ١٤٣ .
(٣) الكتاب ، ٣/ ٤٩٧ .
(٤) ينظر : المصدر نفسه ، ١/ ٤٢١ .
(٥) ينظر : مغنى اللبيب ، ١/ ١٤٣ .
(٦) ينظر : الأساليب الإنشائية ، ١٦٢ ، ١٦٣ .

لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ (سورة النحل : ٣٨) ، أو حذفهما ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة الأعراف : ١٦) ، والتقدير : أقسم بما أغويتني ، فالباء في هذا الموضع أحد وجهين : أمّا القسم ، أو السببية[١] .

الواو :

هي في الأصل أداة ربط وعطف ، أمّا إذا جاءت للقسم فلها الصدارة ؛ لتوثيق ما يسبق إنكاره، أو الإقرار والشهادة ، وهي أكثر أدوات القسم استعمالا [٢] ؛ وعلّة ذلك لأنّ الباء ((تدخل في صلة الأفعال في القسم وفي غيرها ، فاختاروا الواو في الاستعمال لانفرادها بالقسم))[٣] ، بمعنى إنّ الواو لا تختص بالأفعال كالباء التي بواسطتها تصل فعل القسم بالمقسم به ، ففعل القسم يحذف مع الواو؛ لكثرة الاستعمال ((وذلك أنّه لما كثر استعمال أقسم بالله ونحوه وأرادوا التخفيف حذفوا الفعل أولا فقالوا : بالله ثم تدرجوا فأبدلوا الباء واوا ؛ لأنّ الواو أخف فقالوا: والله))[٤] ، وقيل أنّ الواو أبدلت من الباء ؛ لقرب إحداهما من الأخرى في المخرج والمعنى[٥] .

وقد ذكر ابن هشام (ت ٧٦١ هـ) أنّ للواو خمسة عشر معنىً ، وعرضها مجتمعة وخصّ أحدها معنى القسم إذ قال ((السادس والسابع واوان ينجر ما بعدهما ، إحداهما : واو القسم ، ولا تدخل على مظهر ، ولا تتعلق إلّا بمحذوف))[٦] ، فخصوصية القسم بالواو في القرآن الكريم في مستهل السور أُريد به التعظيم بما تلاها وهو المقسم به ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ (سورة الفجر:١) ، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ (سورة الشمس:١) ، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ (سورة الليل:١) ، ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ﴾ (سورة العصر:١) ، أمّا إذا تلتها واو أخرى

(١) روح المعاني ، ٤/ ٣٣٤ .
(٢) ينظر : الكتاب ، ٣/ ٤٩٦ ، والإعجاز البياني ، ١/ ٢٤٤ ، ومعاني النحو ، ٤/ ١٦١ .
(٣) المخصص ، ٤/ ٧١ .
(٤) الأساليب الإنشائية ، ١٦٣ .
(٥) ينظر : معاني الحروف ، ١٥ .
(٦) مغنى اللبيب ، ١/ ٤٧٣ .

فالتالية تكون للعطف وليست للقسم كقوله تعالى : ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ (سورة التين :١)

وقد ذهبت بنت الشاطئ إلى أنّ معنى واو القسم في مستهل السور، خرجت عن أصلها اللغوي في القسم للتعظيم إلى معنى آخر ((إنّ القسم بها يمكن أن يكون والله أعلم ، قد خرج عن أصل الوضع اللغوي في القسم للتعظيم ، إلى معنى بياني ... فالواو في هذا الأسلوب تلفت لفتا قويًا إلى حسيّات مدركة ليست موضع غرابة أو جدل ، توطئة إيضاحية لبيان معنويات أو غيبيات لا تدرك بالحس))[١] .

التاء :

لا تدخل تاء القسم إلّا على لفظ الجلالة (الله) قال تعالى : ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ (سورة يوسف:٩١) وهي ليست الأصل في باب القسم ؛ لأنّها بدل من بدل ، فهي بدل من الواو والواو بدل من الباء ، فقالوا : تالله ، والأصل والله وبالله[٢]، فالتاء الخاصة بلفظ الجلالة ، فبالإضافة الى المعنى الذي خصّت به وهو القسم ، فيها زيادة معنى وهو التعجب ، ففي قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٥٧) ، فـ((التاء فيها زيادة معنى وهو : التعجب، كأنّه تعجب من تسهل الكيد على يده ، وتأتيه ، لأنّ ذلك كان أمرا مقنوطا منه لصعوبته وتعذره))[٣] ، وقال ابن هشام : ((التاء المفردة : محركة في أوائل الأسماء ، ومحركة في أواخرها .... فالمحركة في أوائل الأسماء ، حرف جر معناه القسم ، وتختص بالتعجب وباسم الله))[٤] ، وتعد التاء من أغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها ، فهي أقل استعمالا في الكلام من الباء والواو، وأقل دورانا على الألسنة ، وأبعد من إفهام العامة ، وما يميزها عن باقي أدوات القسم ، انها اختصت بالدخول على لفظ الجلالة فقط في القرآن الكريم ، واختصاصها به في أسلوب

(١) التفسير البياني ، ١/ ٢٥ .
(٢) ينظر : معاني الحروف ، ١٥ ، والأساليب النحوية ، ١٦٣ .
(٣) الكشاف ، ٣/ ١٢٢ .
(٤) مغني اللبيب ، ١/ ١٥٧ .

القسم ، لذلك هي آكد من غيرها في القسم ، وفيها معنى التعجب والتفخيم[1].

المبحث الثاني

الصلة بين المقسم به والمقسم عليه

ذكرنا في المبحث السابق أنّ المقسم به والمقسم عليه هما من أركان جملة القسم ، لكننا أردنا أن نبيّن مدى العلاقة بينهما ، وهل هناك دلالة تربطهما معا ، وبيان الحكمة فيه ؛لأنّ أغلب الدراسات في موضوع القسم في القرآن الكريم ، لم تقف على تبيان تلك العلاقة بينهما، ولعلنا في هذا المبحث نوفق بذلك، وقد تعددت صور القسم في القرآن الكريم، وسنتناول الظاهر منها لا المضمر فمنها القسم بلفظ الجلالة ، والقسم بالنبي (صلّى الله عليه وسلّم)، والقسم بالقرآن، والقسم بالمخلوقات ، والقسم بالكواكب وغيرها، وسنقف على بعضٍ منها.

قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ (سورة الذاريات:٢٢،٢٣) ، ما جاء في تفسير الآية ، أنّ المراد بالسماء : السحاب ، وبالرزق : المطر ؛ فإنّه سبب الأقوات ، والوعد هو الثواب الذي وعد الله به عباده الصالحين، أو لأنّ ثواب الأعمال مقدّرة ومكتوبة في السماء ، فكما أنّه لا شك لكم في انّكم تنطقون ، فيجب عدم الشك في قدرة الخالق في استنزال الرزق[2] .

المقسم به في الآية هو الربّ ، والمقسم عليه – جواب القسم – هو ﴿إنّه لحق...﴾، فالصلة واضحة بينهما، فالله سبحانه قد أقسم بنفسه على أنّه مالك لأمور الناس كلها ، ومكفل وموكل بكل شيء ، فهو أعلم بصلاح الناس وحوائجهم ، فهذه حقيقة راسخة ، مثلما كان نطقكم هو حقيقة ، ولا يحتاج الناطق منكم الى الاستدلال على وجوده ، ولا يخالجه أدنى شك في أنّه ناطق ، فقدرة الله على ذلك هو حق ثابت لا مرية فيه ، يشبه ثبوت نطقكم ووجوده ، فوجه الشبه بين الأمرين اليقين، إضافة لذلك خضوع السماء والأرض لأمره،

(١) ينظر : الإتقان في علوم القرآن ، ٣/ ٢٩٩ ، وجواهر البلاغة ، ١/ ٣٣٤ .
(٢) ينظر : أنوار التنزيل ، ٥/ ١٤٨ .

وفيه تعظيم لشأنه[١] ، ولاختيار صفة النطق في التمثيل خصوصيات في تأكيد جوانب من المقسم عليه ، فهي صفة تناسب الرزق ((إنّ كلّ انسان ينطق بلسان نفسه لا يمكن أن ينطق بلسان غيره ، كذلك كلّ إنسان يأكل رزق نفسه الذي قسم له ولا يقدر أن يأكل رزق غيره))[٢] ، فعملية اثبات ما أخبر به من الرزق هي جزء من المقسم عليه .

فناسب أن يقسم الله سبحانه بنفسه في هذا الموضع ، ردّا على المشركين الذين ينكرون التسليم لأمره ونهيه ، كما كانوا ينكرون البعث والنشر ، ولما كان جميع أمور الخلق من شؤون الربوبية ؛ حُلِف بالربّ تأكيدا لربوبيته .

قال تعالى : ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (سورة يس ١-٤) ، تفسير الآية الكريمة إنّ الله تعالى أقسم بالقرآن المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وإنّك يا محمد لمن المرسلين على صراط مستقيم ، على دين ومنهج قويم ، وشرع مستقيم[٣] .

المقسم به في الآية الكريمة القرآن، والمقسم عليه ﴿إنّك لمن المرسلين﴾، أمّا الصلة بينها فقد تحدى الله سبحانه المشركين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن ، فهو معجزة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم الخالدة ، وأداة تبليغ رسالته[٤]، فقسم بالقرآن لبيان عظم شأن النبي ورسالته ، إذ قال بعض العلماء في الاقسام : ((إنّ المقصود الأصلي بها تعظيم المقسم به .... فيكون المقصود من الحلف الاستدلال به على عظم المحلوف عليه ، وهو هنا عظم شأن الرسالة ، كأنّه قال: إنّ من أنزل القرآن – وهو من هو في عظم شأنه – هو الذي أرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وآله وسلّم))[٥] ، فناسب القسم هنا بالقرآن ؛ ردّا على إنكار المشركين وجحدهم على رسالة النبي ، فهو تأنيس للنبي وتعريض بالمشركين[٦] .

(١) ينظر : التبيان في أقسام القرآن ، ١/ ٤٢٢ ، والإعجاز اللغوي ، ١/ ٣٥٣ .
(٢) معالم التنزيل ، ٦/ ٨٩٨ .
(٣) ينظر : تفسير ابن كثير ، ٦/ ٥٦٣ .
(٤) ينظر : مفاهيم القرآن ، ٩/ ٣٤٦ .
(٥) التفسير الوسيط ، ١٢/ ١٢ .
(٦) ينظر : معالم التنزيل ، ٥/ ٧٨١ .

قال تعالى : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ ﴾ (سورة الواقعة ٧٥-٧٨) ، أقسم الله تعالى بمواقع النجوم أي ((مساقطها في مغاربها ، وما يحدث الله في تلك الأوقات من الحوادث الدالة على عظمته ، وكبريائه ، وتوحيده ثم عظم هذا المقسم به فقال: وإنّه لقسم لو تعلمون عظيم وإنّما كان القسم عظيما ؛ لأنّ في النجوم وسقوطها عند مغاربها آيات وعبرًا لا يمكن حصرها))[١] ، المقسم به مواقع النجوم ، والمقسم عليه القرآن الكريم أمّا الصلة بينهما ، فهي مواقع النجوم في طلوعها وغروبها، جعلها الله سبحانه ؛ ليُهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن الكريم يُهتدى بها في ظلمات الجهل والغي ، فمواقع النجوم هداية من الظلمات الحسيّة ، وآيات القرآن هداية من الظلمات المعنوية[٢] .

ومواقع النجوم ، وما تعنيه من دقة مداراتها ، كلّها تسبح في الفلك الغامض ، وكلٌّ منها له مجاله المغناطيسي ، وحركته المرسومة له ، فلو أنّ نجما خرج عن مداره ، أو عن مجاله المغناطيسي ؛ لحدثت كارثة كونية ، وهو احتمال بعيد جدا ، إن لم يكن مستحيلا[٣] ، أمّا القرآن الكريم فهو معجزة ، بما يحويه من حروف ، وكلمات ، وآيات وسور ، كلّها فيها من البيان والبلاغة ما سحر بها أفئدة الناس ، فلئن اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا مثله لا يأتون بمثله ، وهنا تتضح عظمة القرآن في الربط بينه وبين المقسم به ، فالكون بنجومه وكواكبه وما فيها من حكمة الترتيب ، والقرآن بأحرفه وكلماته وآياته وسوره[٤] ، فناسب القسم بمواقع النجوم في سرعتها وعظمتها مع علو ومكانة وعظمة القرآن الكريم .

قال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴾ (سورة القلم ١-٢)، اقسم الله تعالى بالقلم ؛ لأنّه ((من مظاهر حكمة الله تعالى في تعليم الانسان الكتابة فتضمن تشريف حروف الهجاء والكتابة والعلم ؛ لتهيئة الأمة لخلع دثار الاميّة عنهم ، واقبالهم

(١) تفسير السعدي ، ١/ ٨٣٦ .
(٢) ينظر : مفاهيم القرآن ، ٩/ ٣٦٣ .
(٣) مباحث في إعجاز القرآن ، ١٩٩، ٢٠٠ .
(٤) شواهد الإعجاز ، ١٥ ، ١٦ .

على الكتابة والعلم ؛ لتكون الكتابة والعلم سببا لحفظ القرآن))[١] ، وللقلم والكتابة مكانة مهمة في الحضارة الاسلامية ، ففي ظل هذا التعليم الذي دعا اليه القرآن الكريم ، برزت أمّة متحضرة احتلت مكانتها بين باقي الامم والحضارات ، وبدأ فجر جديد في العلوم والمعارف[٢] .

المقسم به في الآية الكريمة القلم ، والمقسم عليه نعمة النبوة والايمان ، والصلة بينهما إنّ القلم هو آلة الكتابة ، والقلم والكتابة هما آيتا العقل والدراية الذي بوساطتهما تثبت أنواع العلوم وتتداول وتتناقل ، ويتلقاها البشر بعضهم عن بعض ، فالقرآن اقسم بالقلم ؛ اراد به نفي الجنون عن نبيه الأكرم[٣] ، ((وكيف يكون مجنونا والكتب والأقلام أعدت لكتابة ما ينزل عليه من الوحي ، وقد أقسم سبحانه بالقلم والكتب فتحا لباب التعليم بهما))[٤] ، فالمناسبة بين ما سطر بالقلم ، وبين ما أتى به الرسول صلّى الله عليه وآله وسلم لا يتأتى إلّا من عقلاء وبذلك تنتفي صفة الجنون عن النبي الاكرم كما يدعي المشركون .

الخاتمة

١ – كثرة الاقسام بها في الكون من مشاهد ؛ دليل على أهمية التفكر والتدبر في مخلوقات الله.

٢ – أقسم الله بنفسه ؛ لعظم الأمور التي تستتبع القسم.

٢ – أدوات القسم في القرآن لها استعمالات متفاوتة ، فالباء هي أصل أدوات القسم، ومن معانيها أنّها تضيف الحلف إلى المحلوف به ، واختصت من دون الأدوات الأخرى بجواز ذكر الفعل معها ، وهي بوساطتها يُعدّى فعل القسم إلى المقسم به ، وليس ذلك مع الواو والتاء .

(١) التحرير والتنوير ، ٢٩/ ٥٨،٥٩ .
(٢) ينظر : مفاهيم القرآن ، ٩/ ٣٨٧ .
(٣) ينظر : مفاهيم القرآن ، ٩/ ٣٩٠، ٣٩١ .
(٤) تفسير المراغي ، ٢٩/ ٢٦ .

٣- اختصت الواو في مستهل السور ، إذ يراد بها تلاها التعظيم ، وهي أكثر الأدوات استعمالا في القرآن الكريم ، واستعملت في القسم لتوثيق ما يسبق إنكاره ، أو الإقرار والشهادة .

٤- اختصت التاء عن باقي الأدوات بلفظ الجلالة ، وفيها زيادة في المعنى، وفضلًا عن معناها في القسم ، لها معنى التعجب .

٥- إنّ ذكر المقسم به في الآيات القرآنية مستتبعا بالمقسم عليه ، فيه من الدلالة إلى أنّ هناك صلة وتناسب تجمع بينهما ، فكل مقسم عليه جاء متناسبا مع المقسم به في السياق والمقام ، ويرتبط ارتباطا وثيقا معه في المعنى ، وهذا من إعجاز وبلاغة القرآن الكريم .

٦- الغاية من القسم هو تحقيق المقسم عليه ؛ لأنّ القسم في الكلام من طرق تأكيد الخبر

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم .

٢. الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتب ، ١٩٧٤م.

٣. أساس البلاغة ، جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، تحقيق محمد باسل عيون السود ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٨م.

٤. الأساليب الإنشائية في النحو العربي ، عبد السلام محمد هارون ، ط٥ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ٢٠٠١ م .

٥. الأصول في النحو ، أبو بكر بن السراج (ت ٣١٦ هـ) ، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة ، لبنان ، بيروت .

٦. الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ، عائشة بنت الشاطئ (ت ١٤١٩ هـ)، ط٣ ، دار المعارف .

٧. الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم ، تأليف مناهج جامعة المدينة العالمية ، الناشر جامعة المدينة العالمية .

٨. اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، الحسين بن أحمد بن خالويه (ت ٣٧٠ هـ)، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٤١ م .

٩. أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، أبو سعيد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ) ، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي ، ط١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

١٠. التبيان في أقسام القرآن ، ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) ، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

١١. التحرير والتنوير ، بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣ هـ) ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٤ م .

٢١. التفسير البياني للقرآن الكريم ، بنت الشاطئ (ت ١٤١٩ هـ) ، ط٧ ، دار المعارف، القاهرة .

١٣. تفسير القرآن الكريم ، ابن كثير البصري (ت ٧٧٤ هـ) ، تحقيق سامي بن محمد سلامة ، ط٢ ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ١٩٩٩ م .

١٤. التفسير الكبير ، فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) ، ط٣ ، دار احياء التراث العربي، بيروت ، ١٤٢٠ هـ .

١٥. تفسير المراغي ، احمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١ هـ) ، ط١ ، مطبعة البابي واولاده ، مصر ، ١٩٤٦ م .

١٦. التفسير الوسيط ، محمد سيد طنطاوي ، ط١ ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الفجالة ، القاهرة ، ١٩٩٨ م .

١٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن السعدي (ت ١٣٧٦ هـ) ، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، ٢٠٠٠ م .

١٨. جواهر البلاغة في المعاني والبديع ، أحمد الهاشمي (ت ١٣٦٢ هـ) ، تدقيق د. يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية ، بيروت .

١٩. ديوان امرئ القيس ، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي ، ط٢ ، دار المعرفة ، بيروت، ٢٠٠٤ .

٢٠. روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ، شهاب الدين الآلوسي (ت ١٢٧٠ هـ) ، تحقيق علي عبد الباري عطية ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٥ هـ .

٢١. شواهد الإعجاز في البناء القرآني ، أ .د عاطف قاسم المليجي ، ط١ ، ٢٠٠١ م .

٢٢. الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم ، د. محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع ، ط١ ، مكتبة العبيكان ، الرياض .

٢٣. الكتاب ، عمرو بن عثمان سيبويه (ت١٨٠ هـ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٣ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٨ م .

٢٤. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، جار الله الزمخشري (٥٣٨ هـ) ، ط٣ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ .

٢٥. لسان العرب ، ابن منظور (ت ٧١١ هـ) ، ط٣ ، دار صادر ، بيروت ، ١٤١٤ هـ .

٢٦. اللمع في العربية ، ابو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ) ، تحقيق فائز فارس ، دار الكتب الثقافية ، الكويت .

٢٧. مباحث في إعجاز القرآن ، د. مصطفى مسلم ، ط٢ ، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض ، ١٩٩٦ م .

٢٨. مختصر تفسير البغوي (معالم التنزيل) ، عبد الله بن احمد بن علي الزيد ، ط١ ، دار السلام للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤١٦ هـ .

٢٩. المخصص ، أبو الحسن بن سيده (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق خليل ابراهيم جفال ، ط١ ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٩٦ م .

٣٠. معاني الحروف ، علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٤ هـ) ، تحقيق الشيخ عرفان بن سليم الدمشقي ، ط١ ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ٢٠٠٥ م .

٣١. معاني النحو د. فاضل السامرائي ، ط١ ، دار الفكر ، عمان ، الأردن ، ٢٠٠٠ م .

٣٢. معجم القاموس المحيط ، الفيروز آبادي (ت ٨١٧ هـ) ، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة ، أشراف محمد نعيم العرقسوسي ، ط٨ ، مؤسسة الرسالة للطباعة ، بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٥ م .

٣٣. معجم المصطلحات النحوية والصرفية ، د. محمد سمير اللبدي ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، دار الفرقان ، الاردن ، ١٩٨٥ م .

٣٤. معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ١٩٧٩ م .

٣٥. مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام الأنصاري (٦٧١ هـ) ، تحقيق د. مازن المبارك ، محمد علي حمد الله ، ط٦ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٥ م .

٣٦. مفاهيم القرآن ، جعفر السبحاني ، ط١ ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان، ٢٠١٠ م .

٣٧. مفردات ألفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) تحقيق صفوان عدنان داووي ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٦ م .